الفصـــل الثامـن

القدرات البشرية والنبوية فى الرسل

الثابت أن الأنبياء والرسل اختارهم الله منذ خلق الإنسان ورتب لكلٍّ قدره، وما دام الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم حيث يضع رسالته، كما أنه ـ سبحانه ـ يختار رسله من الملائكة ومن عامة الناس، فقد أحاطهم بكل الضمانات التى تكفل لهم حمل الرسالة بالكفاءة المطلوبة. وهذا هو الذى دفع بعض الفقهاء إلى تقرير العصمة المطلقة للأنبياء والرسل. غير أن حكمة الله قد اقتضت أن يكون الأنبياء بشراً من بين الناس فى أقوامهم، فيجمع النبى بين قدر من البشرية وقدر من النبوة، أو إن شئت الدقة أنه نبى أو رسول مع بعض الخصائص البشرية.

وقد فصل القرآن الكريم أسباب اختيار الأنبياء من أقوامهم، وبين الحكمة من بشريتهم حتى تكون التكاليف التى يأتون بها للناس فى مقدور عامة الناس، وهذه البشرية والنبوة حيرت الناس على مر العصور، كما حارت أفهامهم فى سر اختيار أشخاص بذواتهم بعد سنوات من نشأتهم بين أقوامهم، فأخذ البعض حمية الحقد والغيرة، كما دفع البعض الآخر إلى التصدى أو السخرية ما دام أمر الأديان حادثًا جللاً ليس من السهل القبول به على خلاف العادة والإلف فى هذه المسائل الحرجة.

والثابت أيضًا أن المظاهر البشرية فى الأنبياء تدعم تأهلهم للنبوة ولا تناقض ما جاءوا به من تكليفات، وكثيراً ما حار الناس بين بشرية الأنبياء ونبوتهم والتبس الأمر على أقرب المقربين منهم، كما أدى ذلك إلى اختلاف الفقهاء والباحثين حول مدى العصمة التى يتمتعون بها، حيث العصمة لما يلحق الرسالة وليس لما يلحق الرسول نفسه عند البعض، وهى مطلقة عند البعض الآخر على سبيل التحوط والقداسة، وحتى لا يفتح باب الاجتهاد فى هذه المسألة إلى تجاوزات غير مقبولة فى هذا الصنف من البشر.

كذلك أدت ثنائية الطابع البشرى والنبوى فى أسرة الأنبياء ـ هداة البشرية من الضلال ـ إلى الاختلاف حول حدود البشرية وحدود النبوة والخط الفاصل بينهما.

وفى مساحة البشرية المدخل إلى موضوع هذه المقالة، وهو اللحظات الحرجة فى حياة الأنبياء والرسل، وكلهم واجه هذه اللحظات، فكان إدراكهم لرسالتهم، وتكوينهم النفسى والعصبى عاصمًا لهم من الاستطراد فى تصرفات البشر ونسيان جوهر الرسالة وما أحاطها الله ـ سبحانه ـ من ضمانات النجاح والخاتمة الطيبة. صحيح أن معظم الأقوام التى كذبت رسلها وعجز معهم الرسل والأنبياء عن هدايتهم قد حاق بهم العذاب ونالهم غضب الله مصداقًا لما توعد به الرسل والأنبياء، إلا أن القليل منهم هو الذى اهتدى وبقى موصولاً بطريق الحق عبر أجيال البشرية. ويضيق المقام عن تفصيل هذه النقطة، ولكن القرآن الكريم فصل مصائر هذه الأقوام حتى تكون عبرة للأقوام اللاحقة، بل إن القرآن الكريم قد لفتنا إلى ضرورة السير فى الأرض والبحث فى چولوچيا الأرض حتى نرى عاقبة المكذبين من أقوام عاد وثمود وقوم تُبَّع وغيرهم.

وقد أوضح لنا القرآن الكريم أن لحظات الضعف والشدة فى تبليغ الدعوة قد دفعت ببعض الأنبياء إلى مواقف هى فى الحقيقة أقرب إلى طبيعتهم البشرية، ولكن سرعان ما كان إدراكهم لنبوتهم عاصمًا لهم من الانزلاق فى عصبية البشر وضعفهم.

وقد أخبرنا القرآن الكريم أن أنبياء الله قسمان: **الأول:** هم أولو العزم، **والقسم الثانى:** هم الأنبياء غير ذلك، ولم يقل القرآن « دون ذلك» حتى لا يسمح لنا نحن عامة الخلق أن يرد فى أذهاننا فطنة التمييز بين أنبياء الله، فنرفع بعضهم من أولى العزم، ونخفض فى المرتبة الفريق الآخر؛ ولذلك شدد القرآن على رسوله الكريم بأن يشدد بدوره على المسلمين بأنهم ملتزمون بتوقير كل الرسل والأنبياء والإيمان برسالاتهم جميعًا، وألا يفرقوا بين أحد من رسله، وهم لله مسلمون.

وأرجو ألا يقع فى روع القارئ أن هذه الإطلالة الفكرية تعطيه الانطباع بتصنيف الرسل بين أولى العزم وبين غيرهم، ولكن الهدف الأساسى هو إيضاح أن لحظات الضعف والحرج فى حياة الأنبياء كانت تجد تعبيرًا فى الجزء البشرى، فلم يلبث حتى يعتصم بطبيعة النبوة والصنعة الخاصة والعصمة المؤكدة.

ولذلك لا يجوز أن ينطلى علينا أوصاف الخبثاء من الكُتَّاب المسلمين الناقلين عن المستشرقين حين يعتبرون رسولنا الكريم مصلحًا اجتماعيًا وسياسيًا فذًا وعسكريًا قديرًا وأحد عظماء التاريخ؛ لأن هذه الأوصاف تنطبق على من هو بشر كله، أما النبى فإن

بشريته جزء من نبوته، ونؤكد فى هذا المقام مرة أخرى أن النبى ليس مقسومًا بنسب مختلفة بين النبوة والبشرية، وأن التنازع قائم بين الشقين، ولكن الصحيح هو أن النبى أوتى الصفات البشرية بالقدر اللازم لكى يجعل الرسالة بتكاليفها فى مقدور البشر؛ ولذلك لا تنازعه بشريته فى مقام النبوة، وإنما الصحيح أن النبوة تطبع بشريته ما دام أن الأصل هو الطابع النبوى والإعداد الخاص لحمل الرسالة نفسيًا وعصبيًا. ولعل أبلغ الأدلة فى رسولنا الكريم أنه لا ينطق عن الهوى وهو حكم مطلق دفع عددًا من الأئمة إلى إسباغ العصمة المطلقة التى تناسب هذا الحكم المطلق، وإلا فأنّى لرجل أمّى أن تكون أحاديثه من أبلغ ما عرفت اللغة، وأن تتضمن أحكامًا تقررت لها وظائف رئيسة فى علاقتها بالقرآن الكريم، وأن يكون التمايز بين لغة القرآن الكريم المنزل والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية فى اللغة وليس فى صلب الأحكام، حتى التبس عند عامة الناس أحيانًا مفردات القرآن والأحاديث ورددوها فى غير موضوعها الأصلى.

فى ضوء المقدمة الطويلة الضرورية فى المقال السابق، يكفى فى هذا المقال أن نضرب أمثلة سريعة للحالات الحرجة التى يتعرض لها أنبياء الله ورسله. فقد واجه نوح عليه السلام جحود قومه ورفضهم وإنكارهم جيلاً بعد جيل فرفع تقريره إلى الله بعد ٩٥٠ عامًا فضرب بذلك مثلاً فى الصبر فى تبليغ الرسالة واللين فى أسلوب الدعوة والصبر على الأذى على التفصيل الذى أوردته آيات الذكر الحكيم، سواء فى مرحلة الدعوة أو فى مرحلة صناعة السفينة.

ونال من الهوان والتهكم ما تعجز طبيعته البشرية عن احتماله. ثم تعرض نوح لمحنة أخرى حين حاول أن يحمل ابنه معه فى الفلك وفضل ابنه أن يظل كافرًا مع قومه وغرق أمام عينيه، واستمع للمعيار الذى يحدد علاقته بابنه وهو ليس علاقة الدم بين الوالد والولد كسائر الناس، ولكن علاقة الهداية إلى رسالته، فعطل الله ـ سبحانه ـ عند نوح ما غرسه سبحانه فى عموم الناس من غريزة حب البنين.

نبى الله موسى الذى صنعه على عينه سبحانه، واجه لحظات حرجة كانت بشريته تتجلى فى هذه اللحظات، فكانت اللحظة الأولى عندما استجاب لاستنجاد أحد بنى إسرائيل به ضد أحد المصريين، فتصرف تصرف البشر العادى وليس البشر المشمول بالنبوة. وكانت اللحظة الثانية المتسقة مع روح النبوة عندما بث همه إلى الله من الجوع

والضياع والغربة وهو عند البئر فى قرية شعيب. ودفعته بشريته بعد ذلك إلى التماس النار لتدفئة زوجته وهما فى سيناء، حيث تلقى التكليف وفزع من صوت الله، ثم من عصاه عندما تحولت حية تسعى ولم يعهد ذلك فيها. ثم تردد مرة أخرى بمنطق البشر عندما طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، وأفصح عن خشيته من عقاب فرعون له بعد فراره فرارًا سياسيًا من مصر، وقتله ظلمًا أحد المصريين وهو ما دعا الملأ للائتمار به وليس التآمر عليه، وهما عملان مختلفان حسبما أخبره رجل جاءه من أقصى المدينة يسعى. ثم ساور موسى القلق على حياته وأخيه، فأمنه ربه بأنه معهما يسمع ويرى. ثم فزع موسى مرة أخرى وهو يرى ما ألقاه سحرة فرعون الذين قال فيهم القرآن الكريم إنهم سحروا أعين الناس، فسحرت عين موسى كسائر الناس، ولكن الله الذى يرافقه ويحرسه ثبته ليلقى عصاه لتلتهم عصيهم وحبالهم. وعندما بدا أن جيش فرعون يقترب من موسى وقومه على حافة الماء أدرك موسى بإدراك البشر أنهم لمدركون، ولكن الله ثبت يقينه مرة أخرى وأمره بأن يضرب بنفس العصا البحر لتظهر له وظيفة جديدة للعصا وهى صناعة المسارب البرية فى قلب الماء لينجو بها موسى وقومه.

أما سيدنا يوسف، فقد يبدو للقارئ أن بشريته كانت تغلب عليه حين همت به امرأة العزيز فَهَمَّ بها هو الآخر ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]. فدل ذلك على أن الأنبياء يتمتعون بعصمة خلقية ذاتية، كما يتمتعون بحماية إلهية عند الشدائد، وأن العصمة الذاتية تسمح بإبداء الخصائص البشرية فى التفاصيل ولكنها عصمة النتائج؛ ولذلك عندما أحس يوسف بالحصار الخانق والإصرار المعلن من زوجة العزيز والتسليم العام فى المدينة لرغباتها، ضاقت به الأرض بما رحبت فلجأ إلى الله مستجيرًا ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣].

وهناك لحظة حرجة أخرى غشيت يوسف عندما أضناه طول البقاء فى السجن ظلمًا حتى ظن أنه أصبح منسيًا يقضى فيه بقية عمره وهو بعد لا يزال شابًا يافعًا، فطلب من زميل السجن ـ الذى فسر يوسف رؤياه أنه سوف يكون ساقى الملك ـ أن يذكر الملك به لعله يطلق سراحه. وأخيرًا حزن يوسف كما يحزن الناس عندما اتهمه إخوته ظلمًا وبهتانا بأنه كان سارقًا، وشوهوا سمعته لدى أخيه الذى وضع المكيال فى ركبه وفق خطة يوسف.

وأما سيدنا يونس فقد ضاق ذرعًا وكاد يخرج من عقال النبوة، حيث أخبر القرآن الكريم أنه ذهب مغاضبًا وظن أن لن نقدر عليه. فى هذا المشهد غلبت بشرية يونس على إدراكه لنبوته؛ لأن الظن محله القلب الذى لا يطلع عليه إلا الخالق؛ ولذلك استدرك يونس بالتسبيح فأنجاه الله من بطن الحوت، وإلا لمكث كما يقول القرآن الكريم فى بطن الحوت إلى يوم الدين.

وأما نبى الله لوط، فقد كبر عليه فعل قومه أمام ضيوفه وخشى أن يغلبوه بفعلهم وهم يطلبون الضيفَيْن عنوة وبالقوة، وتجلت بشريته فى تمنيه أن يكون أقوى منهم فيردهم أو يأوى إلى من هو أشد منهم ,وكانت تلك نهاية المطاف التى دفعت الملكين أن يطمئنا لوطًا بأنهما رسل ربه وأن القوم لن يصلوا إليه، وأخبراه أنهما مكلفان بإهلاك قومه، إذ وجهاه إلى أن يتسلل بأهله، أى يمر آمنًا بدعوته ـ إلا امرأته وهى من جنسيتهم ـ تحت جنح الظلام، وأخبراه أن موعد إهلاكهم هو الصبح أى بعد ساعات.

وسيدنا إبراهيم حين ألقى فى النار لم يشك لحظة أن القادر على تعطيل خاصية الإحراق فى النار قادر على إحياء الموتى، وهو الذى جادل الملك بعقله ومنطقه، وليس بمنطق النبوة وهو الذى اهتدى إلى الله بعقله، أراد أن يظهر للناس قدرة الله على الإحياء والإماتة، وأن يطمئن قلبه إلى ما وقر فى قلبه، فأجابه الله إلى طلبه. ثم توجس من ضيفيه فأزالا الرهب من قلبه عندما أخبراه أنهما مرسلان لإهلاك قوم لوط، وشعر شعور البشر خوفًا على ابن أخيه لوط فنبههم إلى ذلك.

ويبدو أن إبراهيم الخليل جزع من رؤياه التى تأمره بذبح ابنه الوحيد الذى أنجبه بمشقة وتركه مع أمه وحيداً فى رعاية ربه فى أرض غريبة معزولة ليس فيها زرع ولا ماء بالقرب من بيت الله الحرام ودعا الله لهما وانصرف وقلبه ينفطر. ولعله أبلغ ابنه إسماعيل ولم ينفذ الرؤيا مباشرة؛ حتى يختبر مدى ثقة ابنه فى رؤيا أبيه؛ لأن ابنه هو الآخر نبى، وربما دفعت إبراهيم بشريته إلى التراخى فى التنفيذ لعل ابنه يرفض هذا الأمر فيجد عذراً فى تعطيل التنفيذ، رغم أن هذا التفسير مستبعد مع خليل الرحمن.

وأخيراً، فى رسولنا محمد ﷺ الكثير من اللحظات الحرجة، وتجلت بشريته فى الكثير من المواقف، ولكنها كانت بشرية نبيلة لم تنل من جوهر الرسالة، بل اتسقت تمامًا مع عظم الرسالة ونبلها، فكان الرسول قدوة فى الحزن على فلذات الأكباد.

وحزن الرسول لأن عليّا اعتزم الزواج على فاطمة، بل بلغ حبه لفاطمة وحدبه عليها أن أنب عليّا على المنبر بقوله: **«ما بال أناس يؤذون رسول الله فى حياته»**. إلى آخر صور بشرية الرسول التى أفاض فيها الشارحون وكُتَّاب سيرته العطرة، ولكن المهم فى موضوعنا أن اللحظات الحرجة لم تزعزع إيمانه بأنه نبى، وأن تصرفه فى هذه اللحظات لا يأتيه إلا نبى أوتى الرسالة بيقين.

وقد لقى نبينا ـ صلى الله عليه وعلى آله أطيب السلام والتسليم ـ من العنت وعاش لحظات من المعاناة، ولكنه كان دائمًا مدركًا للنبوة مستحضراً الله فى كل حياته، فبلَّغ الرسالة وحفظ الأمانة، وكان خاتم أنبياء الله ورسله إلى خلق الله، فانقطعت به علاقة السماء بالأرض، وظل كتاب الله وسنة نبيه نبراسين للهدى ويقين المترددين إلى يوم الدين.

* * *